

واقع الشعر الإسلامي في الجزائر

■ نحاول بهذا البحث أن نلج عالم القصيدة وفق الرؤية الإسلامية، التي تتيح لنا أن ندرس هذا العالم في ظل مكون حضاري خاص، أساسه الوطن الجزائري المسلم، الذي حاول الاستعمار الفرنسي المؤيد بمشاريع مشبوهة أن ينسخ أسس الهوية الإسلامية فيه.

أما مادة البحث فهي القصائد التي أبدعها شعراء تفتقت شاعريتهم، وتبلورت أبعادها ومضامينها في ظل الخصوصية السابقة، وفي هذا المجال تقع دراستنا التي سيتدرج بناؤها وفق مفهوم التواصل، الذي يجعلنا نقرأ القصيدة قراءة سليمة، ننأى بها عن الإلغاء والإقصاء، وسلطة الأبوة المتكبرة، أو البنوة الجاحدة، هذه

السلطة التي حاول بعض الدارسين من خلالها عزل العمل الأدبي الجاد، وتبجيل الاستثنائي والغريب.

وتبعاً لهذا المفهوم فإننا سنؤرخ للقصيدة بعهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١) التي لا يستطيع دارس للأدب الإسلامي في الجزائر أن يتجاوزها لأنها الأساس الذي تشكلت في ثناياه الرؤية الإسلامية، والدراسة محكومة بالمنهج التاريخي الذي يسمح لنا أن نقرأ القصيدة وفق المكونات الأساسية لمادة التعبير التي تجذرت في ظل معايير وطنية معروفة، وهي القراءة التي ستبنى أساساً على ربط العمل الأدبي بشروطه التاريخية وظروفه الموضوعية التي نشأ فيها، والمنهج نفسه يفيدنا في التواصل مع المتلقي العربي والإسلامي، إذ يمنحه صورة أولية شاملة لواقع هذا الشعر في الجزائر،



بقلم الدكتور

عمرو وردة

توفرت القصيدة الإسلامية في الجزائر كما وكيفاً.. وكانت أساس الإبداع.

ويمكننا تبعا لهذا الهدف أن نقرأ القصيدة وفق العناصر الآتية:

أ - قبل الثورة (عهد جمعية العلماء).

ب - في زمن الثورة.

ج - عهد الاستقلال.

أ - القصيدة الإسلامية في عهد جمعية العلماء:

إن الحديث عن هذه القصيدة لا يستقيم إلا إذا مهدنا له بالحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهي الأساس المهد لكل حديث يتعلق بالثقافة العربية الإسلامية وما صاحبها من إبداع، فهذه الجمعية كما يقول عنها زعيمها الثاني الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ - ١٩٦٥م): «كالحساب ساقه الله إلى بلد ميت فلا يقلع حتى يحييه» (٢) وهي المنقذ من التيه يقول الإبراهيمي: «لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا» (٣) إن قائمة طويلة من الشعراء الجزائريين تكون قد ولدت في ظل الجمعية التي لقنتهم المبادئ الإسلامية التي تشكلت في ظلها رؤاهم الشعرية فكانوا شعراء إسلاميين. وإذا كان بعض الدارسين للشعر الجزائري الحديث لا يسيرون إلى البذور الإسلامية لهذا الشعر، فليس معنى هذا أنها غائبة بل هي حاضرة، ولكنهم يناون عن ذكرها بحكم مناهج معينة تحتم عليهم أن يقولوا: هذا شاعر كلاسيكي وذاك رومانسي وآخر واقعي، وهي الدراسة التي اكتفت في أغلبها بالنقل والانبهار.

ونحن حين نؤسس بهؤلاء فإننا لا نعني أنهم قد التزموا بمبدأ الأدب الإسلامي شكلاً ومضموناً، ولكننا نؤكد أن مضمون معظم هؤلاء الشعراء إنما يصب في إطار الرؤية الإسلامية، ومعنى هذا أن شعرهم إنما يحقق الشرط الأول من شروط الأدب الإسلامي وهو المضمون، أما الشكل فقد وفقوا فيه وفق

ما أتاحتهم لهم ثقافتهم التقليدية.

وتبعاً لما مضى فإننا ندخل بإيجاز إلى عالم هؤلاء الشعراء من خلال موضوعات تشكلت بها القصائد ضمن النص والإرشاد، والوطن، والحس التاريخي.....

■ أما النص والإرشاد: فعالمه الشباب

الذين تحدث عنهم أحمد سحنون ومحمد العيد - بخاصة - بكم هائل من القصائد التي طغت على ما كتباه من شعر، ومنهج النص من نهج إسلامي أساسه الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل بشريعة الله، وحب الوطن والذود عن حماه، ولذلك غدت قصائدهما في هذا المجال أشبه بلوحات تربوية طويلة ممتدة، أما لغتهما فيغلب عليها الأمر والنهي.

يقول محمد العيد مخاطباً الشباب: (٤)

يا شباب العلاء اعتصمم بالتأخي

زانك الله في العلاء من شباب

وانشر السنة الكريمة واعمل

بهذاها وخذ بحدّ الكتاب

وينصحه بالتواصل مع الشرق

الإسلامي الذي يحميه من ضلال الغرب

قائلاً: (٥)

لك دين من الدهور عزيز

يُبدّل المال دونه والرقاب

يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ

كل كنز له إليه انتساب

والمضمون نفسه نجده عند الشاعر أحمد

سحنون الذي يقول مخاطباً الشباب: (٦)

قوموا املاؤا الأرض عدلاً إنها ملئت

جوراً تدك به هولا رواسيها

قوموا انشروا الدين والخلق القويم بها

فالدين حارسها والخلق أسيرها

قوموا ارفعوا مشعل التوحيد إن به

تحيا الشعوب قليل الشرك ماحيها

هكذا تمضي أشعار هذين الشاعرين حين

تسودها لغة أمرة مرشدة، تترجم عن منهج

جمعية العلماء نفسها التي ترى الشعر

وسيلة للتربية والإصلاح.

■ أما الشعر الوطني: عند هؤلاء

الشعراء فيأتي في إطار إسلامي تواصل،

أساسه الجزائر العربية المسلمة، التي لا

يمكنها أن تعيش إلا في ظل تواصل مكاني

جغرافي فرضه الإسلام، ولذلك لا نقرأ

الجزائر في أشعارهم إلا وهي مزدانة بخريطة

طويلة ممتدة امتداد العالم الإسلامي، فعندهم

نجد الجزائر وفلسطين والمغرب وتونس

ومصر والسودان والباكستان... وفي

شعرهم أحداث وأحداث عربية إسلامية

تحرك وجدانهم وتدهشهم كما تدهشهم

أحداث الجزائر الدامية.

فـالوطن - إذن - هو الجزائر المؤيدة

بالمسلمين جميعاً، ويمكننا أن نقرأ ذلك في

عناوين القصائد الآتية التي يحتويها ديوان

محمد العيد «فلسطين العزيزة... يا مصر...

استقلال ليبيا... استقلال

السودان...» وجميع هذه الأوطان لا تبدو

إلا من خلال الصورة الكلية التي هي الإسلام،

يقول أحمد سحنون في معرض حديثه عن

فلسطين التي غدت قبلة الوطن الإسلامي

الكبير وقلبه النابض: (٧)

وأنت منار العلاء مُدْبِتَةٌ

يُد الرسل مسجداً المفتدي

ومُد كنت مسرى نبي الهدى

جمعت المكارم والسؤدد

وكنّت لأوجهنا قبلة

نخر لها ركعاً سَجَّداً

ولا عجب أن تتحول الأقاليم الإسلامية

الواسعة الممتدة بهذا المفهوم إلى وطن روحي

زاخر، يتلأأ ويزهو كلما هبت رياح الحنين

إليه فالشرق - وهو الوطن الأول للإسلام -

غدا قبلة الشعراء الجزائريين حين نظروا إليه

نظرة مفعمة بالإعجاب والتقدير، بل اعتبروه

المرجع في الفكر والتاريخ، وليس لهم من أمل في إحياء الجزائر الدامية إلا به، ومع الشرق تأتي «مصر» التي غدت معلما من المعالم الروحية، وقبلة يتوجه إليها هؤلاء الشعراء، يقول محمد العيد: (٨)

حي مصر اوحى أعلام مصر

بتحايا كاللؤلؤ المنتور

قل لهم إن في الجزائر نشأ

يتخطى إلى العلا في وعور

فوق أرض من عزة الدين قفر

بين قوم غفل من الدين بور

وخلاصة الحديث عن موضوع الوطن أن

الشعراء الجزائريين إنفا استطاعوا أن يبدعوا

وفق ما يمليه المنهج الإسلامي، الذي يحتم

على المسلمين أن يتواصلوا وفق أوطان

إسلامية، تجمع وتوحد بعيدا عن الأوطان

التي تفرق وتشتت.

ونختم الحديث عن شعر هذه المرحلة

بقصائد ذات سمات تاريخية، وهي القصائد

التي عبر فيها الشعراء عن حنينهم إلى

ماضيهم المجيد، والأشعار هذه غالبا ما تكتب

في الأعياد والمناسبات التي يقف أمامها

الشعراء حائرين متسائلين عن مصير وطنهم

ولغتهم ودينهم، وقصائد أحمد

سحنون «يابلا دي.. ذكريات المجد.. ذكرى

رأس السنة الهجرية... ذكرى الإسراء

والمعراج... دليل صدق على حنين جارف

إلى هوية مسلمة» يقول في قصيدة ذكريات

المجد: (٩)

إننا أحفاد أبطال الوري

إننا أبطال تاريخ مجيد

هل رأى التاريخ في أبطاله

مسعرا في الحرب مثل ابن الوليد

أم رأى مثل ابن عوف أو رأى

كابن عفان أضا فضل وجود

هل رأى مثل أبي بكر إذا

ضلت الآراء ذا رأي سديد

أورأى مثل علي مثالا

للتقى والعلم والبأس الشديد

ويبدو هذا الحس التاريخي في أغلب

قصائد محمد العيد، الذي يعود إلى

الماضي المجيد، ليعيش معه لحظات روحية

استدعتها لحظات التأزم الآنية، يقول في

قصيدة «سلوا التاريخ» (١٠)

سلوا التاريخ عن أركى رسول

رؤوف في الكتاب بكم ودود

وعن دين أقام العدل ركنا

وأعلى بنده فوق البنود

سلوا إفريقيما عما أتاهما

مع الإسلام من بر وجود

وخاتمة شعر هذه المرحلة أنه شعر واعظ

مرشد، حاث على العودة إلى منابع الصافية

للإسلام، فبها ينتصر الإنسان الجزائري

المسلم، وبها يكون الخلاص من الاحتلال

الفرنسي.

ب - القصيدة الإسلامية في زمن الثورة:

لن نقف طويلا عند شعر الثورة، الذي

التحم فيه جل الشعراء الجزائريين بالثورة

التي أنجزها الشعب دون سواء، لكننا

سنكتفي بجملة من الملاحظات التي يحتمها

المنهج الإسلامي، والتي نراها مهمة، لأنها

تضع جملة من الأمور في نصابها.

وتبعا لهذا فإننا نقرأ في شعر الثورة

نوعين من القصائد جاءت الرؤية فيها مغايرة

تبعاً لتغاير المؤثرات المتنوعة التي ساعدت في

تكوين العمل الإبداعي، وسنجعل هذه القراءة

مقدمة ممهدة لقصيدة الاستقلال التي

أفصحت عن مرجعيات فكرية مختلفة.

أما النوع الأول فهو الذي أبدع فيه

الشعراء وفق أطر فكرية وثقافية وفنية

جديدة طارئة، كالقومية والواقعية الاشتراكية

والإنسانية... وهذا النوع من الشعر اختص به

شعراء شباب في أغلبهم مثل: محمد بلقاسم

خمار وصالح خرفي وصالح خباشة

وأبو القاسم سعد الله، ومحمد الصالح

باوية... ونحن إن نورد هذه الأسماء الشاعرة

فإننا لا نعني أن قضايا الإسلام منعقدة في

شعرهم، بل هي موجودة، لكننا نؤكد فقط

أنهم لم يستطيعوا أن يبدعوا وفق الرؤية التي

تتيح لهم أن يكونوا شعراء إسلاميين.

ونأتي إلى النوع الثاني الذي سلك فيه

أصحابه مسلك الشعراء الحكماء الخائفين

على مصير ثورة الشعب الواعدة بالنصر، إذ

تبوأ قصائد لهم لغة خاصة، تشكلت في ظل

الخصوصية الإسلامية، التي حولتها إلى

رحلات روحية تؤدي تكبيرا ومناجاة لأجل

جهاد هذا الشعب، الذي ينتظر منه أن ينجز

مشروعاً ذا قيمة إسلامية، والواضح أنهم قد

لجأوا إلى هذه الصيغة لأنهم أدركوا أن

الثورة وهي الفعل الآتي صارت حقيقة

منجزة ويبقى الأهم المبهم بعد هذا هو ماذا

عن زمن ما بعد الثورة؟ إذ الخوف هنا على

المشروع، هذا هو البناء الذي تشكلت فيه

قصائد شاعرين على الأقل هما أحمد

سحنون ومحمد العيد حين احتوتهما ثنائية

الآني والمستقبلي معا. ونبدأ بالشاعر أحمد

سحنون الذي لاتفارقة هذه الثنائية التي

نبدأها بالآني المتمثل في تلك الابتهالات

الروحانية التي يرسلها صيحات مفعمة

بالإيمان، يناجي بها ربه كي يخلصه مع

شعبه من أسرهم. (١١)

فقدارك بني الجزائر رباد بلطف واشملهم بأمان

وانف عنهم ما في العبودية الحمقاء من ذلة وعيش هوان

رب هبنا نصرا فإننا طلبنا ثمن النصر بالنجيع القاني

رب لم يبق مسترقا سوانا فهب العنق للأسير العاني

والنجوى هذه سمة الشاعر أحمد سحنون

التي لاتفارقة، إذ نقرأها في معظم قصائده



● مفدى زكريا

وقال الله كن يا شعب حربا
على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب كن يارب عوننا
على من بات لا يخشى عقابا
فكان وكان من شعب ورب
قرار أحدث العجب العجبا
وقوله: (١٦)
أرض الجزائر والسماء تحالفا
فاختط حلفهما النجيع الأحمر
والشعب أسرع للشهادة عذما
ناداه عقبة للفداء وحيدر
وخاتمة شعر الثورة عند هؤلاء الشعراء أنه
شعر متفائل، حين لم يش أصحابه يوماً أن
الجهاد طريق الخلاص، وأنه مفتاح لجنة
تدعى وطن العربية والإسلام، ولحلم يدعى
الحرية والعدالة، ذلك هم المعجم الذي تشكلت
في ظله قصائد هؤلاء، فنحن نقرأ عندهم هذه
الجمل «سينبثق فجر.. سنعلن العيد.. نحكم
بالشورى.. سيحكمنا الإسلام.. البشرى لنا..
الإسلام ديننا.. الشرق قبلتنا..»

جـ - القصيدة في عهد الاستقلال:

لا نستطيع أن ندرس القصيدة الإسلامية

والرحلة الإيمانية بهذه الكيفية قد لا
نجدها عند الشاعر محمد العيد، لكننا
نستطيع أن نتبين بعض ملامحها في
قصيدته «مناجاة بين أسير وأبي بشير»
و «أبا المنقوش» وهما القصيدتان اللتان
كتبتا تحت ضغط الإقامة الجبرية، التي
فرضت عليه بمدينة بسكرة، ونستطيع أن
ننتقهما بقصيديتي «السؤال»، ففيهما سأل
جبل المنقوش وأبا بشير معتمدا على لغة
الخوف والرجاء، وملكنا على النص القرآني
المؤيد بالأمل المجسد في قصة سليمان -
عليه السلام - مع الهدهد، فقد وقع للشاعر
مع أبي بشير ما وقع لسليمان مع
الهدهد: (١٤)

فقلت أبا بشير أنت ضيف
قراك الشعر لا حبّ الشعير
أرح قلبي بزقزقة الأمانى
ومتعني بمنظرك النضير
وانبئتني عن الأمل المرجى
وحدثني عن الحدث الخطير
فقال لقد أتيتك من بعيد
فأصغ إلي وارو عن الخبير
كما أصغى سليمان قديماً
إلى أنباء هدهد الصفير
وقد حاول محمد العيد من خلال اعتماده
على هذا المعادل ذي المصدر القرآني أن يصل
إلى اليقين، ويقيهن يكمن في الاستقلال الذي
سيشهد قيام دولة مسلمة، حكمها الشورى
وقوامها العدل.

أما مفدى زكريا فيختلف عن محمد العيد
وأحمد سحنون حين اعتمد لغة القوة التي
صيرت شعره قنابل وشظايا تحرق الأعداء،
والقوة عنده لا تبني إلا وفق ثنائية أساسها
الله والشعب حيث نقرأ في ديوانه «الله
المقدس» عقدا إيماناً أبرمه الشعب الجزائري
المسلم مع ربه الذي هو صاحب النصر: (١٥)

التي كتبها في السجن، والتي أسماها
«حصاد السجن» والحصاد مر علقم، لكننا
نجد الشاعر وقد تسامى في هذا المكان
الموحش المرعب عن لغة السجن والسجان
والوثاق والعذاب ليكتب بلغة المؤمن الوثاق
بالله الذي لا يأتي النصر إلا به ولذلك نجد
اللغة عنده وهي تسمو لتصفو فتتحول إلى
دعاء ونجوى ورجاء في الله الذي لا مخلص
للشعب من محنته إلاه: (١٢)

رباه لم تبق لنا حيلة
وما لنا حول ولا قوة
وما لنا غيرك من عاصم
يعصمنا من هذه الهوة
والمواقع أن هذا الأسلوب الذي لجأ إليه
أحمد سحنون إنما يفوق أسلوب أي شاعر
آخر أثناء الثورة، فالابتهاال والتضرع إلى الله
والخوف على مصير جهاد الشعب هو الدافع
الداخلي الأكبر الذي بموجبه تتحرك التجربة
وتولد القصيدة.

هذا عن الآتي، أما المستقبلي فإن الجمل
الشعرية لاتمر إلا إذا احتكمت إلى هوية
الإسلام التي يجب أن تسود وطنه بعد
الاستقلال، هذا هو المهم في تجربة أحمد
سحنون، وهو الحلم الذي عاش له، ولكي
يتحقق الحلم لا بد له من نفس مؤمنة ترعاه
وتحافظ عليه، وفي ظل ذلك تجده يخاطب
جيش التحرير الذي تحمل الأمانة نيابة عن
شعبه، شاكرا له سعيه، مذكرا إياه بأن يحفظ
العهد حتى ينجز الاستقلال، الذي لا يأتي
إلا بالإيمان: (١٣)

أيها الجيش طاب مسعاك فابشر
بنجاح لسعيك المشكور
أيها الجيش دم على ما عهدنا
ك من المجد في الكفاح المرير
وبإيمانك اعتصم إن في
الإيمان تيسير كل أمر عسير

□□ اعتمد مفدى زكريا لغة القوة التي صيرت شعره قنابل وشظايا تحرق الأعداء.

في هذه الفترة إلا إذا مهدنا لها بجملة من الأسباب التي نجمها في عاملين.

١ - العامل السياسي: ويهمننا في هذا المجال العامل السياسي في علاقته بالإنسان الجزائري، الذي أسلمه زمن الثورات إلى الاستقلال الواعد بالأمال العظيمة، فهو الذي يحمل في طياته بذور الحياة، وهو الذي سيؤول بالإنسان إلى زمن الإسلام: (١٧) والشعب يهتف كله مستتبشرا يافرحتي نضجت ثمار جهودي اليوم ترفع في الجزائر راية تحمي عرين أبوة وجدود وتقام فيها دولة قوامه بالحق قائمة على التوحيد

ب - العامل الثقافي:

تعد المشكلة الثقافية من أهم المشكلات التي أفلقت الاستعمار الفرنسي، فهو وإن استطاع أن يحكم بالحديد والنار إلا أنه لم يستطع أن يفصل الشعب عن خصائصه العربية الإسلامية، فوطن كالجزائر كانت تظنه فرنسا ملكا لها إلى الأبد حين احتقلت بمرور مائة سنة على تشييع جنازة الإسلام فيه* والظن له من الواقع ما يبرره فوسائل الإبادة المخصصة لذلك مرعبة، يقول سيد قطب: «... لقد أريد بالجزائر أن تكون أندلسا جديدة، أريد بها أن تتسلخ من جسم الوطن العربي الإسلامي وأن تتبلعها الصليبية الجديدة، ولم يعرف بلد في الشرق أو في الغرب ما عرفته الجزائر من أساليب الصليبية». (١٨)

وجاءت الثورة التحريرية لتترجم عن الفعل السليم وتبرهن عن خطأ الحسابات الفرنسية وهي الثورة التي أسلمت هذا الشعب إلى الاستقلال بل إلى ولادة جديدة أساسها الأمل في إقامة مكون ثقافي يستجيب لنداء الذات الإسلامية، غير أن هذا المكون الذاتي لم

يتحقق، فقد عادت المشكلة الثقافية بعد الاستقلال، وعاد معها الاستعمار الغربي مصحوبا بمجموعة من أبناء الوطن الذين ترعرعوا في أحضان فرنسا. لقد أوقعنا هذا المتغير الحضاري الخطير في مشكلة ثقافية تجذرت بعد الاستقلال حتى صارت مرضاً يستعصي علاجه، وخلاصة هذين العاملين أنهما قد أتاحا لنا أن نعرف الإطار الثقافي والسياسي الذي ولد في ظله الشعر الجزائري بعد الاستقلال، وهو الإطار الذي لا يستقيم إلا إذا وزعناه بين ثلاثة تيارات أو اتجاهات شعرية نوجز الحديث عن اثنين منها لنجعلها مقدمة للاتجاه الإسلامي الذي هو موضوعنا.

□□ الاتجاهات الشعرية:

إن هذه الاتجاهات وإن اتفقت في وسيلة الكتابة التي هي اللغة العربية فإنها قد اختلفت جذريا فيما يتعلق بالقصيدة التي أنتجتها الرؤى المختلفة التي تعيش في ظل وطن واحد وهي الرؤى التي صارت في خطوط متوازية ويبدو أنها لم تلتق إلى الآن، وفيما يلي حديث عن هذه الاتجاهات.

أ - الاتجاه الاشتراكي:

ويحتل مساحة واسعة في تاريخ الأدب الجزائري المعاصر، فقد ساعدت عوامل مادية وأيديولوجية وإعلامية على ظهوره كأبرز مكون للثقافة الأدبية بالجزائر، كما عملت على جعله النموذج الأمثل الذي لا يناقش، ويكفيه أن أحد الأساتذة العرب قد قال عن أصحابه «إنهم أعظم شعراء عصرنا». (١٩)

وهذا الاتجاه قد عمل من خلال موقفه الأيديولوجي على اشتعال الخصومة الفكرية بينه وبين كل من لا يواليه في فكره، خاصة إذا كان الرافض إسلامياً فكان أن قاده هذا

الموقف إلى نوع من الإفلاس الفني والموضوعي، حين لم يؤثر كثيراً في الجيل الآتي من بعده

ب - الاتجاه القومي: القومية بالمفهوم الشرقي ضئيلة في أدبنا، لكننا نستطيع أن نلمس بعض آثارها في شعر الشعراء الجزائريين الذين عاشوا أيام الثورة خارج وطنهم وبخاصة في القاهرة ودمشق وبغداد لما لهذه العواصم من زخم ثوري قومي ومنهم: محمد بلقاسم خمار.. أبو القاسم سعدالله.... محمد الصالح باوية.. محمد الأخضر.. عبدالقادر السائحي... هؤلاء الذين ركزوا بعد الاستقلال على القطيعة الثقافية التي أدت إلى إقصاء اللغة العربية من الواقع، وهي اللغة التي راهنوا عليها أثناء الثورة التحريرية، ومن صور الإقصاء مانقروءه في الأسطر الآتية لمحمد بلقاسم خمار الذي لا يجد من يكلمه بالعربية في عاصمة وطنه: (٢٠)

مددت ذراعي وكفي

تسولت بالعربية

فلم يطربوا لي

تواضعت حتى غدوت كموطيء خف

فلم يرحمونني

ج - الاتجاه الإسلامي:

١ - الشعراء الشيوخ:

نقصد بالشعراء الشيوخ هنا أولئك المخضرمين الذين عاشوا أيام الثورة وما قبلها وما بعدها، ومن هؤلاء أحمد سحنون ومحمد العيد ومفدى زكريا هؤلاء الثلاثة الذين عبروا من خلال قصائدهم عن مجموعة من القضايا الجزائرية التي لا تخرج عن إطارها العربي الإسلامي، وهي القضايا التي تجعلنا نؤكد توافر الرؤية الإسلامية في قصائدهم رغم الضعف الفني الذي سادها.

□ اكتسب شعر الشيوخ أهمية حضارية كبرى لعلاقته بالمسار التاريخي للشعب.

ألا أين الضمير وأين غابا؟
وخلاصة القول في شعر هؤلاء الشيوخ أنه
يكتسي أهمية حضارية كبرى لعلاقته بالمسار
التاريخي للشعب، فلتاريخ أهمية خاصة في
غنى اللفظ الذي أحالوه إلى خصائص إبداعية
يستمد منها الشعب خلاصة مسيرته
الحضارية.

٢ - الشعراء الشباب:

يشغل هذا الجيل مساحة فنية وزمانية لا
بأس بها، تمتد من نهاية السبعينيات إلى
يومنا هذا، ويكون بهذا الامتداد قد فرض
نفسه من خلال ما توافر لديه من قراءات
واعية لزمانه الذي دله على اكتشاف ذاته
المتملة في هويته الإسلامية، وهي الهوية
التي تشكلت في ظل الصيرورة التاريخية،
التي آل إليها المجتمع الجزائري في
السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن،
والتي اصطلح على تسميتها «بالصحوة
الإسلامية» إذ هي الفعل التاريخي والمحضن
الذي نشأ فيه الشعر الإسلامي المعاصر.

ونحن عندما نتحدث عن هؤلاء فإننا نؤثر
أن نبدأ الحديث بملاحظات تتيح لنا أن
نستوعب الواقع الثقافي الصعب، الذي أبدع
فيه هؤلاء الشعراء، والملاحظات نختصرها
في الآتي:

● ندرة المؤسسات التي تتيح لهؤلاء
الشعراء أن يبدعوا في ظلها.

● قلة الأبحاث الأكاديمية التي مازالت تسير
على استحياء في جامعاتنا.

● قلة الاهتمام بالتراث، بل وقلة الوعي
بقراءته قراءة إسلامية

- عدم التنوع في الوسائل الفنية، كالرمز
واستدعاء التراث..

ورغم هذه الملاحظات فإننا لا نعدم وجود
نماذج جيدة كما وكيفا، وهي النماذج التي

ترفعوها بالصخرة الصماء
فأقيموها لهم تماثيل عز
في قلوب ثورية الأهواء
وعندما لا يفلح النصح في واقعهم
يلجأون إلى الثورة المؤيدة بالكشف
والفضح لما جرى في واقعهم، والثورة
تأتي صريحة واضحة لا أثر فيها للإيهاء
أو المراء، يقول أحمد سحنون معلنا ثورته
على الذين بددوا جهود الشعب. (٢٤)

تبنا لدنيا ترفع الأندالا
وتحارب العظماء والأبطال
وتبارك المتلونين وتحترفي
بالخائنين وتكرم الجهالا
وتسوم أهل الفضل جحد جهودهم
وجهادهم وتخيب الأمالا
والحل في عرف الشاعر أن يقاطع
الشعب هؤلاء المتلونين ويؤثر عليهم: (٢٥)

فلم يبق بعد اليوم للصبر موضع
ولا خير في الصبر الذي يورث الذلا
فتر لا تقل صبيرا شباب محمد
وثب واقحم نار الوغى لا تقل مهلا
وعودوا إلى ماكنتم من جهادكم
سينصر حزب المؤمنين وإن قلا
وذودوا عن الأحكام من جأر أو طغي

وردوا إلى الإسلام من ضل أو زلا
ويصل مفدى زكريا بمجموعة من
القصائد الثائرة التي كتبها بعد الاستقلال
إلى موقف مؤداه أن الثورة قد انتهت، وأن
زمن الرجولة قد ولى: (٢٦)

أمليون من الشهدا بأرض
لتنسكب الخمر بها انسكابا
أرض الثورة الكبرى وحشد
إلى الأتنام ينصب انصبابا
مهازل تضحك الأحجار منها
وينتحب الشهيد لها انتحابا
ألا أين الرجولة يا لقومي؟

ونأتي - بإيجاز - إلى ذكر بعض
الموضوعات التي شغلت هؤلاء الشعراء بعد
الاستقلال، والتي تشكلت في ظل المتغيرات
المذكورة سابقا، ومن الموضوعات ما يتعلق
بالنصيحة التي يوجهها هؤلاء إلى الحاكمين
عليهم يعودون إلى رشدهم ويحكمون بما
جاهد من أجله الشعب الجزائري، ويمكننا أن
نقرأ هذه النصيحة عند أحمد سحنون الذي
يبدأ بها كقاعدة إسلامية يسلكها المؤمنون
العاقلون. (٢١)

فلا تحسبوا التحرير يُعني عن الهدى
ولا محض الاستقلال يكسبنا فضلا
فلا كان الاستقلال إن جانب الهدى
ولا بقي التحرير إن حارب العدلا
أعيزكم أن تمسخوا الثورة التي
بذلت فاعليتم لإنجاحها فضلا
وسودوا بهذا الدين في الناس آخرا
كما سدت كل الأنام به قبلا
فمن لم يزد عن دينه ما يسوؤه
فليس بذي دين وإن صام أو صلى
والنصح نفسه نجده عند محمد العيد
الذي التزم به منهجا وسلوكا يحاكم به
الواقع الجزائري بعد الاستقلال
يقول: (٢٢)

قف قليلا أفدك بعض الوصايا
وأزودك عدة الميــدان
أنت عندي أخو ابن لقمان فاظفر
بوصاياك من أخي لقمان
وصايا محمد العيد ثمينة، لأنها
الأركان التي إن حافظ عليها الشعب سلمت
مسيرته من الانهيار، أما أعظمها فتلك التي
تتعلق بالشهداء الذين يجب على الجزائري
أن يحفظ عهدهم بالتواصل الحضاري
الجاد، لا بنصب تذكارية تزار
للحاجة: (٢٣)

إن ذكرى الشهيد أرفع من أن

□□ مثل مصطفى الغماري الأساس في القصيدة الإسلامية بالجزائر بعد الشعراء الشيوخ.

سنذكر بعضها في الآتي مبتدئين بالشاعر مصطفى محمد الغماري الذي يمثل الأساس في القصيدة الإسلامية بالجزائر بعد الشعراء الشيوخ.

إن بداية الخيط في مجال القصيدة الإسلامية لدى الشعراء الشباب إنما تكمن في الشاعر مصطفى محمد الغماري، الذي استوعب الشعر الإسلامي منهجاً ورؤية، أما قراءة أعماله الشعرية فلا تتأني إلا لمن استوعب الصراع الدائر بين الإسلام والشيوعية، تضاف إليه محن المسلمين، وهو الموضوع الأكبر الذي كتب فيه الغماري دواوين لا تحصى، وتضاف إليه موضوعات أخرى أهمها الزهد والغربة واللجوء إلى الله... وفيما يلي بعض الشواهد الشعرية الدالة على عوالمه، ففي حديثه عن ضياع المسلمين يقول: (٢٧)

لست أدري ما هوانا
أيســــــــــــــــار أم يمين؟
والخطايا في خطانا
ومــــــــــــــــرايانا ظنون
لينا رقص وقــــــــــــــــصف
وسويغات اشتهاه
ومواــــــــــــــــيد خلف
مات فينا الكبرياء
ويتحدث بالهم وحسرة عن العقيدة
الإسلامية التي يناصبها العالم العداء
وليس لها من مجير: (٢٨)
ليلي الأسيرة يا أحباب تشدكم
هناك حيث توارى ضوء كلماتي
الله الله في ليلي.. أتصلبها

ريح الصليب وما تصحو بطولاتي
وبعد الغماري نصل إلى جيل الثمانينيات
الذي أثر الكتابة في ظل الثقافة العربية
الإسلامية، ومن هؤلاء نجد: نور الدين
درويش وعيسى لحليح وحسين زيدان،

السياسي السائد، فكان الموضوع الأكبر الذي شغلهم في هذه المرحلة هو صورة السياسي المؤيد بالمتقف المناوئ للإسلام، هذا ما نقرؤه في كم شعري لا بأس به، شملت سنوات الثمانينيات، وبداية التسعينيات، وهو الكم الذي اتخذ له منحى بارزاً، أساسه البكاء والتحسر على ما أصاب الوطن، وفي هذا المنحنى نجدهم يناجون الشهداء والعلماء والمخلصين والثورة ورموزها معتمدين في كل ذلك على أساليب كالنداء والبوح والنجوى، يقول محمد شايطة مناجياً روح ابن باديس: (٢٩)

عبد الحميد وقد ثارت مشاعرنا
تضوع في النفس حبا من ثنايانا
يا باعث المجد إن طالت رزيتنا
إنا شباب بنا تفنى بلايانا
وعند نور الدين درويش نلمس هذا النداء الذي يبحث فيه عن البطل المفقود الذي يريده أن يتجدد في زمن جفت فيه البطولة: (٣٠)

يا أيها البطل المفقود في الظلم
يا راحلا في المدى يا غصة بدمي
ليلاك حلم وكابوس يعضدنا
ماذا سيحدث لو عشنا بلا حلم
تأبى المسافة أن تأتيك طائعة
فهل بوسعك أن تجري بلا قدم
ومع البطل المفقود يأتي النداء بحثاً عن المقدس المفقود: (٣١)

أناديك في صمته الليلة حين أحن
أناديك من شرقة الذكريات
ومن صور خبائثها السنون
أناديك
وهناك على بعد قلبيين صورتك المصطفاة
وخلف التجاعيد
قنبلة ودم ودموع
وقصائد هذه المرحلة غالباً ما تتسم

ومصطفى بلقاسمي، وسويعد صالح فريد، وشارف عامر، ومحمد شايطة، وعقاب بلخير، ويوسف وغليسي، وياسين بن عبيد، وعبد الوهاب زيد... هؤلاء الذين تعتبرهم فاتحة خير في أدبنا الإسلامي المعاصر بالجزائر، ففي شعرهم مضامين مشفوعة بفنية خاصة، تجعلنا نتفأل بإسلاميتها، وفيه ما يؤكد على التواصل الذي نقرأ بدايته في شعر محمد العيد وأحمد سحنون ومفدي زكريا والغماري... إن هؤلاء الشعراء قد حاولوا أن يغيروا من خلال بديل إسلامي، والتغيير لم يكن محكوماً بالفجائية المدعمة بالعاطفة الآتية، بل هو نابع من تفكك نموذج اجتماعي وسياسي معين، وهو التفكك الذي منحهم الجرأة على الكتابة - على الأقل - يضاف إليها عامل الصحة المذكورة آنفاً.

وتبعاً لما مضى فإن البديل عند هؤلاء الشعراء أصيل أساسه المضمون المؤيد بالفن، أو لنقل المضمون المشفوع بلغة خاصة، ذلك لأن التغيير قد حصل من خلال التفاعل بين الشاعر وثقافته الإسلامية، التي ألجته إلى معجم خاص، حين فقدنا في شعر هؤلاء ذلك المعجم الذي يكون أصول الشعر السبعيني، المعتمد على لغة الملح والزبد، والمومسات والغواني، والكفر بالله، وسب الخلفاء الراشدين، والتهكم بالتاريخ الإسلامي... وفيما يلي جملة من الشواهد الشعرية التي نحاول أن نقسمها إلى مرحلتين متداخلتين زمانياً، ذلك لأن المعول عليه في التقسيم هنا هو الفن:

١ - المرحلة الأولى:

وتمثل البداية التي لم يبلغ فيها الشعراء النضج الفني، ويبدو أن المعول عليه في هذه المرحلة هو اللغة المنفعلة، المتجاوبة مع الموضوعات الآتية، التي قصروا عليها أشعارهم، والتي تتجاوز مرحلة الأفق الثقافي

تغير المضمون الشعري بتفاعل الشاعر وثقافته الإسلامية التي أوجته إلى معجم خاص.

بالبكاء والتوجع على العز الضائع كالذي
نقرأه في قول عيسى لحليج: (٢٢)
وَأَيْنَ الأَبَاةَ الهُدَاةَ تَوَلَّوْا
جَمِيعاً وَشَقَّوْا الجُيُوبَ وَنَاحُوا
وَكَيْفَ الخِيُولَ وَلَا الخَيْلَ تَنْجُو
لَقَدْ نَابَ عَنْ حَمَحِمَاتِ نَبَاحِ
رَوَايَاتِ فَتَحَ أَهْيَنْتَ وَخَطَ
شِعَارَ كَوْجِهِ القُرُودَ وَقَاحِ
وَفِي قَوْلِ مُصْطَفَى بَلْقَاسِمِي: (٢٣)
أَيْنَ الرِّجَالِ الصَّادِقُونَ تَسَابَقُوا
يَهْبُونَ أَغْلَى مَا يَجَادُ وَأَكْبَرَا
أَيْنَ الدَّمَاءِ الزَّكَائِيَاتِ وَأَهْلَهَا
لَيْتَ الشَّهِيدَ يَقُومُ حَتَّى يَبْصُرَا
رَحَلَ الشَّهِيدَ إِلَى جَوَارِ حَبِيبِهِ
لَكِنْ حِلْمَ الذَّاهِبِينَ تَبَخَّرَا

ب - المرحلة الثانية:

وهي التي تجاوز فيها أصحابها مرحلة
الانفعال المحكوم بالآنية فكتبوا قصائد ذات بعد
إسلامي عميق، وهو البعد الذي يتيح لهم أن
يشركوا القارئ في عالمهم الخاص الذي بدأ
يتكون تدريجياً وفق التجربة الشعرية المتميزة،
التي استعانوا فيها بفنيات القص الذي أتاح لهم
أن يعبروا عن معاناتهم بانسيابية ممزوجة
بالأسى والأمل، ويمكننا أن نقرأ في هذا المجال
قصيدة صالح سويعد فريد (لَمْ تَيَاسِينِ) والتي
يحكمها أسلوب القص المعتمد على ثنائية الأمل
والأمل، يقول: (٢٤)

قَدْ عَشَّشَ الهم الكبير عَلَى الشَّدَى

وَتَفْسَخْتَ أَشْعَارَنَا

وَالْيَاسَمِينَ

وَالسُّوسَنَاتِ اسْتَوْطَنْتَهَا

سُوسَنَةُ الزَّمَنِ الْهَجِينِ

وَتَكْدَسَتْ فِي وَجْهِنَا كُلِّ التَّجَاعِيدِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ

وَالْهُوَى، أَوَاهُ وَالْجَرْبِ لِلْعَيْنِ

حَتَّى الْمَآذِنِ وَالْمَدَائِنِ وَالْأَنْثَيْنِ

حزنا على شعبي الحزين

حتى إذا نطق الهوى

أمل يجيء تربت فينا المنافي آه وانقطع الوتين

وبعد هذه الأسطر الحزينة التي يحكي

فيها الشاعر قصة شعب أراد أن يحيا، وأن

يمارس الصفاء في ظل زمن مشبوه يأتي

الأمل إذ يقول:

لَمْ تَيَاسِينِ؟

ما زال عندي جرعة من «أكسجين»

هي وحدها

تكفي الحمامم والنسائم والبئين

لا يحزننك ما هناك وما هنا

والطبل والتزيمير والغزل الكمين

لَمْ تَيَاسِينِ؟

هي لحظة من عمرنا

تخضوضل الأيام فيها جملة

وتعيد ذاكرة المني في جملتين

فبأي آلاء الصباح تكذبين

آه ونطلع من هنا

أنشودة للخافقين

وأخيراً فإننا لا نرجو بهذا الموضوع إلا تقديم

صورة مجملة للقصيدة الإسلامية في الجزائر،

وهي الصورة التي تجعلنا نؤكد أن القصيدة

الإسلامية في الجزائر متوافرة كما وكيفا، بل

هي الأساس في عالم الإبداع.

الهوامش:

١ - نعني بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي

برزت إلى الوجود رسمياً في ٥ مايو ١٩٣١ وكان مقرها

الرسمي نادي الترقى الذي أسس بمدينة الجزائر عام ١٩٢٦

وقد قادت ثورة التحدي ضد الاستعمار الفرنسي،

واستطاعت الحفاظ على مقومات الجزائر العربية الإسلامية.

٢ - آثار الشيخ الإبراهيمي - ج ١ - ش و ن ت -

الجزائر - ط ١ - ١٩٧٨ - ص ٦٣.

٣ - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - مجلة مجمع

اللغة العربية - عدد ٢١٢ - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ١٥١.

٤ - ديوان محمد العيد - ش و ن ت - الجزائر - ١٩٧٩ -

ص ٨٨.

٥ - نفسه - ص ٢٥٩.

٦ - ديوان أحمد سحنون - ش و ن ت - الجزائر -

١٩٧٧ - ص ٢٦.

٧ - نفسه - ص ١٣٢.

٨ - نفسه - ص ٤٧.

٩ - ديوان أحمد سحنون - ص ٢٠٠.

١٠ - ديوان محمد العيد - ص ٢٠٠.

١١ - ديوان أحمد سحنون - ص ١٨٤.

١٢ - نفسه - ص ١٤٩.

١٣ - نفسه - ص ٩٣.

١٤ - ديوان محمد العيد - ص ٤٢٣.

١٥ - اللهب المقدس - مفدي زكريا - ش و ن ت -

الجزائر - ١٩ - ص ٣٢.

١٦ - نفسه - ص ١٣٤.

١٧ - ديوان أحمد سحنون - ص ٨٥.

* احتلت فرنسا عام ١٩٣٠ بمرور مائة عام على

احتلال الجزائر والهدف كما تزعم هو تشييع جنازة هذا

الوطن العربي الإسلامي وقد دامت الاحتفالات في بعض

المناطق ستة أشهر، وخلفت جرحا داميا في نفوس

الجزائريين الذين أصرروا على المقاومة حتى كان النصر.

١٨ - كفاح الجزائر - سيد قطب - البصائر - ط ٢ - ع

٢١٤ - ١٩٥٣ - الجزائر.

١٩ - الشعر الجديد في الجزائر - د. حسن فتح الباب -

مجلة الثقافة والثورة - ع ٦ - ١٩٨٢ - الجزائر - ص ١٧.

٢٠ - الحرف الضوء - محمد بلقاسم خمار - ش و ن ت -

الجزائر - ١٩٧٩ - ص ١٦١.

٢١ - ديوان أحمد سحنون - ص ١٧٩ - ١٨٠.

٢٢ - ديوان محمد العيد - ص ٢٦٦.

٢٣ - نفسه - ص ٤٣٥.

٢٤ - ديوان أحمد سحنون - ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

٢٥ - نفسه - ص ٢٦٢.

٢٦ - مفدي زكريا شاعر النضال والثورة - د. محمد

ناصر - ط ٢ - جمعية التراث - غرداية - ص ٢٨٧.

٢٧ - نقش على ذاكرة الزمن - مصطفى محمد الغماري

- ش و ن ت - الجزائر - ص ٦٣.

٢٨ - أسرار الغربة - مصطفى الغماري - ش و ن ت -

الجزائر - ص ٢٧.

٢٩ - احتجاجات عاشق تائر - محمد شايطة - رابطة

إبداع - الجزائر - ص ٣٨.

٣٠ - السفر الشاق - نور الدين درويش - الجزائر - ص ٥٨.

٣١ - نفسه - ص ٥٠.

٣٢ - وشم علي زند قرشي - عيسى لحليج - قسنطينة

- ١٩٨٥ - ص ٥٢.

٣٣ - جريدة السبيل - ع ٨٣ - ١ رجب ١٤١٥ هـ - ص

١٩ - الجزائر.